الهوية الروحية في الشعر الصوفي الجزائري الحديث
قراءة في مرجعياتها ومكوناتها المعرفية والجمالية

Spiritual identity in modern Algerain mystic poetry-Reading in its references and its cognitive and aestetic components-

د-خديجة كروش[1,*]

[1]جامعة باتنة1،(الجزائر)، الايميل:khadidja.karouche@univ-batna.dz

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة

تاريخ الإيداع: 2021/05/05 **تاريخ المراجعة**: 2021/08/30 **تاريخ النشر**: 2021/12/30

ملخص:

إن الواقع الذي نشهده اليوم يحيل على تطور تكنولوجي متسارع مما يدفع الشعوب نحوه طائعة أو مكرهة و يجعلها تبحث عن إسهاماتها، وعن هويتها التي تميزها عن غيرها، فالبحث عن الهوية أو الهويات هو بحث في الأعماق، لمحاولة إيجاد أسباب الارتقاء والتطور والنمو والمساهمة في بناء تخطيط اجتماعي وتربوي وحضاري، ومن بين هذه الهويات "الهوية الروحية "التي نجدها ماثلة على وجه الخصوص في الشعر الجزائري الصوفي الحديث.

وبناء على هذا سيحاول هذا المقال أن يجيب عن بعض الإشكاليات المتعلقة بالهوية الروحية في الشعر الجزائري الصوفي الحديث ويمكن إجمالها في: ما مفهوم الهوية الروحية ؟وما هي مكوناتها في الشعر الجزائري الحديث؟وما مرجعياتها؟وهل هي فردية خاصة بمواجيد الصوفي؟ أم أنها جمعية ؟وهل استطاع هذا الشعر تمثلها بعمق أم أن تمثله لها كان سطحيا ؟ وهل تمكن من المحافظة عليها وجعلها هوية عالمية أم أنه زادها محلية ؟

الكلمات المفتاحية: الهوية، الروحية، الشعر، الجزائري، الصوفي، الحديث

Abstract:

The reality that we are witnessing today is that there is an accelerated technological evolution ,and people are driven to it by a diversity or hatred that often makes them look for their contributions, for themselves, for their distinct identity. The spiritual identity that we find is pticularly similar in Algerian mysticpoetry. Based on the foregoing, this intervention will attempt to answer some of the problems of spiritual identity in Algerian modern mystic poetry, which can be

* المؤلف المراسل.

summarized as: What's the concept of spiritual identity? What's her manifestation? This identity is unique to Sufi's motifs, conditions and styles? It's an association. Did this hair represent her as it should or was it superficial? Has he managed to preserve it and make it a global identity, or has he increased it locally?

***Key words**: identity, spiritual, poetry, Algerian, mystic, modern.*

تقديم:

يشهد العالم اليوم تطورات متسارعة، ومكثفة على كافة المجالات كما يصطبغ بصبغة تكنولوجية رقمية ولّدت ما يوسم "بالعولمة " التي دفعت الإنسان إلى البحث عن مصير خصوصيته وأصالته ليس من قبيل التعصب للذات أو القبيلة ولكن من باب المحافظة على التميز وعدم الوقوع في التبعية للآخر و التماهي في ثقافته، لأنه كما يقول ابن خلدون :المغلوب يتبع ثقافة الغالب.[1] ومما هو معلوم أن العولمة -و هي نتاج غربي بنسبة كبيرة -قد فتحت قضايا الهوية على نطاق واسع خاصة إذا تعلق الأمر بالهوية الروحية التي يقترن فيها الحديث بصورة متلازمة عن الإسلام، فكلما ذكرت هوية الشعوب خاصة الروحية يذكر الاصطدام والتعارض، والصراع، وعلى الرغم مما لها من إيجابيات ومحاسن أهمها ما حققته من رفاهية ومتعة للبشرية ربما لم تبلغها من قبل، إلا أنه ومما لا شك فيه الآن هو أن الهوية والثقافة بخصوصيتهما ومقوماتهما هما المستهدف الأول في هذا الصراع والتدافع الحضاري القائم، وإن الدور الذي يبدو للمتأمل هو محو الهويات والثقافات والأمم والشعوب وتحويلها أو تهميشها لصالح هوية واحدة وهي هوية وثقافة العولمة .

إذن الهوية هي من أهم مميزات المجتمع، فهي التي تجسد أصالته وطموحاته المستقبلية، وتبرز معالم التطور في سلوك أفراده وإنجازاتهم في المجالات المختلفة، بل تنطوي على المبادئ والقيم والمرجعيات التي تدفع الإنسان إلى تحقيق غايات معينة، وعلى ضوء ذلك فهوية مجتمع ما لابد وأن تستند إلى مصادر وأصول تنهل منها قوتها لتحقق غايات سامية تجعلها مركزا للاستقطاب العالمي والإنساني. ومن هنا تكتسي أهميتها مما جعلها تشغل بال المفكرين والعلماء والمثقفين والقادة في دول العالم خاصة في عصر العولمة الذي ترك أثارا نتج عنها تحول في الهوية أو انحراف عن الأصل قليلا أو كثيرا.

ومما ساعد كذلك على الاهتمام بالهوية ظهور البحوث والدراسات عنها خاصة من الجانب الفلسفي كالفلسفة المثالية التي لها فضل في إماطة اللثام عنها حيث مهد للاشتغال على هذا الموضوع لايبينز Leipiniz وكانط أو Kantو هيجل Hegel الذي عمل على نشرها فقد منحت دورا لكينونة الهوية والتي استند عليها " هايدجر " لتحديد مفهوم الهوية فهو يدعونا أن نصغي بترو إلى تلاوة المعادلة أ=أ كي نفهم أن (الهو) est يميط اللثام عن مبدأ كينونة الهوية أي كيفية كينونة كل ما هو موجود هو نفسه مع نفسه، فمبدأ الهوية قائم على كينونة الكائن فلكل كائن ككائن الحق في الهوية أي في الوحدة مع ذاته "[2].

ومما سلف نجد أن الاقتراب من الهوية لفهمها والسعي للمحافظة عليها ودورها في بناء كيان وحضارة الشعوب هي التي تدفع إلى كتابة هذا المقال الموسوم: بالهوية الروحية للدلالة على أنه كما تتعلق الهوية بما هو مادي فإنها كذلك تتعلق بما هو روحي وعلى هذا الأساس تكون أغلى وأثمن و أخطر ونظرا لأهمية الهوية الروحية

أكثر من غيرها من الهويات فقد عبرت عنها الشعوب منذ القدم و".. فاضت نفس الإنسان بالصلوات والأناشيد ومن أقدمها أناشيد رع عند المصريين وأناشيد فيدا عند الهند البرهميين وأناشيد بالا عند الإيرانيين. وأناشيد أرفيه عند اليونانيين وأناشيد أيوب عند العرب ".[3] ولكن قبل تبيان تجليات الهوية الروحية في الشعر الصوفي لابد من ضبط مفهوم الهوية الروحية .

أولا:مفهوم الهوية الروحية:

إن البحث في مفهوم الهوية -على وجه الخصوص- يعد من أصعب البحوث لعدم وجود تخصص محدد يشتغل عليها فهي ترتبط بعدة مجالات كعلم النفس، والأنثروبولوجيا، والسياسة والفلسفة والأدب ."ونظرا لاعتبار مفهوم الهوية مثيرا للجدل، فقد ذهب الباحثون إلى أنها تخضع في تعريفها للعلم الذي يحقق فيها وأن لكل علم تعريفه الخاص للهوية يختلف عن تعريفها للعلم الذي يحقق فيها ، كعلم النفس، وعلم الاجتماع ،فكل باحث حين يتعامل مع مفهوم الهوية – على وجه الخصوص- فإنه يتعامل مع مفهوم غير مستقر من الناحية النظرية، يثير أسئلة أكثر مما يقدم إجابات حيث أنه من أكثر مفاهيم العلوم الاجتماعية تعقدا بالنظر لما يثيره من تساؤلات عديدة.

وإذا عدنا إلى لسان العرب بحثا عن كلمة هوية فإننا لا نعثر إلا على :

:" قال : هوية تصغير هوة، وقيل : الهوية : بئر بعيدة المهواة، وعرشها سقفها المغمى عليها بالتراب فيغتر به واطئه فيقع فيها ويهلك، أراد لما رأيت الأمر مشرفا بي على هلكة طوي طي سقف : هوة مغماة تركته ومضيت وتسليت عن حاجتي من ذلك الأمر، وشمر : اسم ناقة أي : ركبتها ومضيت . ابن شميل :الهوة : ذاهبة في الأرض بعيدة القعر مثل الدحل غير أن له ألجافا، والجماعة الهو، ورأسها مثل رأس الدحل. الأصمعي :هوة وهوى . والهوة : البئر قال أبو عمرو ، وقيل : الهوة : الحفرة البعيدة القعر ، وهي المهواة . ابن الأعرابي :الرواية عرش هوية، أراد أهوية، فلما سقطت الهمزة ردت الضمة إلى الهاء، المعنى : لما رأيت الأمر مشرفا على الفوت مضيت ولم أقم (..) وهي جمع هوة، وهي الحفرة، والمطمئن من الأرض، ويقال لها : المهواة أيضا. وفي حديث عائشة- رضي الله عنها - ووصفت أباها قالت : وامتاح من المهواة ، أرادت البئر العميقة أي : أنه تحمل ما لم يتحمل غيره ."[4]

ونلاحظ من خلال هذا الشرح المعجمي للهوية بأنه لا علاقة له بالهوية التي نبتغيها في هذا المقام اللهم في حديثه عن البئر العميقة التي قد تكون انتقلت في معناها من الدلالة المادية وهي عمق البئر إلى الدلالة النفسية وهي عمق الإنسان، أي دواخله التي قد يختلف فيها مع غيره . .

أما في معجم Le robert فكلمة هويةIdentité" .. صفة لشيئين متطابقين، هوية الأذواق بين كائنين، علاقة تعليمية بين مصطلحين متطابقين، صفة لكل ما يشكل وحدة[5].

وانطلاقا من المفهومين اللغوين لكلتا الثقافتين نجد أن الهوية هي مجموع الصفات المادية والنفسية المتعلقة بالأشياء أو الأشخاص.

أما البلاغيون والفلاسفة العرب فقد استخدموا لفظة الهُوية (بضم الهاء) التي اشتقوها من الضمير هو المقابل للفظة "استين "اليونانية الدالة على مفهوم الوجود حسب ما أقره آرسطو إلا أنه " حدث انزياح لمفهوم الهوية مع الفلسفة الحديثة من معنى الوجود إلى الدلالة على الذات sujetإلى عبارة الأنا أفكر أو الكوجيتو الديكارتي " .[6]

أما في المعاجم العربية المعاصرة فقد ورد تحديد مفهومها كالآتي "..(هو) ضمير للغائب المفرد المذكر ويقال للمثنى (هما) وجمع المذكر (هم) ويقال للمؤنث المفرد(هي)وللمثنى (هما) وللجمع (هن)والهوية حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية وذلك منسوب إلى (هو) "[7].

ويبدو أن الهوية في المعاجم المعاصرة لها مفهوم واضح وليس يدري المرء من أين تم استقاؤه في ظل غياب مفهومها بالشكل الذي لا يحتاج إلى تأويل في المعاجم العربية، ويعد لسان العرب نموذجا عنها.

أما عن آراء المفكرين حول مفهوم الهوية فيلاحظ أن الأمر لا يختلف كثيرا، وإن كان يتصف بأنه أكثر تحديدا ؛ لأنه يرتبط بالبعد الثقافي أو الاجتماعي أو النفسي للمصطلح فقد عرف "سعيد إسماعيل علي " الهوية بأنها " جملة المعالم المميزة للشيء التي تجعله هو هو، بحيث لا تخطئ في تمييزه عن غيره من الأشياء، ولكل منا - كإنسان - شخصيته المميزة له، فله نسقه القيمي ومعتقداته وعاداته السلوكية و ميوله واتجاهاته وثقافته ، وهكذا الشأن بالنسبة للأمم والشعوب" [8].

كما تشير الهوية أيضا إلى أن هوية الشخص تعني صفاته الجوهرية التي تميزه عن غيره ،كما ذهبت بعض التعريفات إلي أن الهوية الاجتماعية هي " تلك السمات الخاصة بمفهوم الذات الفردية في ضوء أسس ومرتكزات لجماعتهم الاجتماعية، وعضويتهم الطبقية معا، ومع ارتباطاتهم العاطفية والتقييمية وغيرها من الارتباطات السلوكية ؛ التي تربطهم بهذه الجماعة مؤكدة انتماءاتهم إليها"[9].

وهذا التعريف يوضح العلاقة بين الانتماء وبين الهوية، حيث إن كلا منهما يؤثر في الآخر ويتأثر به ، فالإنسان عندما يعرف أن هويته ترتبط بهوية المجتمع الذي يوجد فيه ، فإن هذا يجعله يتمسك ويرتبط بمجتمعه .

ومن الملاحظ أن الكتابات العربية والأجنبية تزخر بالكثير من البحوث والدراسات التي تناولت موضوع الهوية ،مما قد يوقع الباحث في نوع من اللبس عند تناول هذا الموضوع بالبحث ، وتأتي المعضلة من صعوبة إيجاد تعريف محدد لمفهوم لها، بسبب تعدد المدارس الفكرية التي تناولت الموضوع، بالإضافة إلي سعته وشموليته، حيث تشارك في تكوينه متغيرات كثيرة، وخاصة المتغيرات الاجتماعية التي تطرأ وتؤثر في الفكر، فالهوية مفهوم له دلالته اللغوية واستخداماته الفلسفية والاجتماعية والنفسية والثقافية كما هو ملاحظ مما سبق ولكنها تدل على أن الهوية هي بصمة الشخص وتميزه عن غيره كما أن هذه الهوية ليست وليدة الساعة بقدر ما هي وليدة الماضي والحاضر.

أما إذا عدنا إلى كلمة الروح فهي في الحقيقة شيء غير مادي، وهي ما يقوم به الجسد وتتحقق به الحياة والروح لا تعلم حقيقتها فهي مما يجهل العباد بعلمه، مع التيقن بوجوده بدليل قوله تعالى : (**وَيَسْأَلونكَ عَنِ الرُوحِ قلِ الروحُ منْ أمرِ ربي وَما أوتْيتم منَ العِلْمِ إلا قَليلاَ) الإسراء / الآية 85.** والحديث عن الروح حقيقةً يقابله حديث عن الجسد، ولا يمكن للروح أن تسمو وترتقي إلا بإتباع القيم الدينية والأخلاقية التي تقَومها وتكون حارسا أمينا على طهارتها، يقول " وليم جيمسwilliam james " : " الإيمان بالله هو الذي يجعل للحياة قيمة وهو الذي يمكننا من أن نستخرج من الحياة كل ما فيها من لذة وسعادة، وهو الذي يجعلنا نتحمل كل ما في الحياة من محن و نتقبلها بكثير من الشجاعة والرضا، وهو الذي يهيئ لنا كل ما هو ضرورة لحياة وادعة"[10].

مما سبق نجد أن الهوية الروحية هي مجموعة الصفات والميزات والقيم التي تطبع روح الإنسان والتي تصدر من خلالها أفعاله وسلوكاته.

وقد ارتبط الإنسان الجزائري بهويته الروحية ارتباطا وثيقا- على الرغم مما عايشه من معاناة في سبيل المحافظة عليها- وهي تبدو جليا في أنواع الخطابات الأدبية و على وجه الخصوص في الشعر الصوفي الذي ظهر في الجزائر بشكل واسع في العهد العثماني واستمر إلى العصر الحديث، " ولقد نشأ الشعر الصوفي الجزائري الحديث في أحضان الزوايا وبين " جدران الطرق واستوحى نماذجه من تراث السابقين عليه فهو تقليد لهم واحتذاء لأساليبهم وموضوعاتهم وأفكارهم، وأن هذه الطرق احتفظت بهذا التراث الأدبي وشجعته بحيث استمر حتى الوقت الحاضر في بعضها بينما اختفى في بعضها الآخر " [11].

ومن بين شعراء التصوف خاصة السلوكي أو الطرقي في العصر الحديث : الأمير عبد القادر الجزائري(1883/1807م)، أبو عبد الله البوعبدلي البطيوي الرزيوي(1867/ 1952م) ،عدة بن يونس(1898/1952) وغيرهم ..من الذين تمثلت أشعارهم الهوية الروحية في فترة كان الشعب فيها بحاجة إليها، يعض عليها بالنواجذ مخافة انطماسها ومحوها ، واليوم للاستفادة من قيمها لدورها في التربية النفسية والاجتماعية.

ثانيا:مرجعيات الهوية الروحية في الشعر الصوفي الجزائري الحديث :

لقد تعددت مرجعيات الهوية الروحية في الشعر الجزائري الصوفي الحديث ولكننا حاولنا حصرها[12] وترتيبها حسب الأهمية والأولوية :

1.النص القرآني:

يعد النص القرآني نصا مقدسا لا يستطيع أي إبداع إنساني مهما عظم أن يرقى إلى تميزه وإعجازه كما ورد في قوله تعالى:(**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) الإسراء الآية /88** . وقد شكل هذا النص مصدرا لكل الخطابات بعامة، والخطاب الشعري الصوفي بشكل خاص إذ استلهم منه شعراء التصوف الدلالة والشكل كما فهموه فهما قلبيا[13]، ولم

يكتف هؤلاء بالتأويل السطحي كما جعلوا كثيرا من ألفاظه مصطلحات لتجربتهم منها :الولي،أسماء الأنبياء عليهم السلام ،..فهو مصدر أساسي ساهم في تشكيل الهوية الروحية لدى هؤلاء .

2.الحديث النبوي الشريف:

الحديث: هو كل ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة و.يحتل الحديث النبوي الشريف المكانة الثانية، بلاغة وبيانا، بعد القرآن الكريم وقد تأثر الشعراء الصوفية في بناء هويتهم الروحية بأحاديثه صلى الله عليه وسلم وأفعاله واشتقوا لأنفسهم من هذا التأثر مصطلحات خاصة كالخلوات، والخوف، والجلال...وغيرها مما يحتاج إلى معاجم خاصة تشرحها.

3.التجربة الصوفية:

يرتبط التصوف بتجربة الشاعر الصوفي التي تتراوح بين أمرين اثنين أما أولهما فهو الجانب العملي المتعلق بتأديب النفس وتهذيبها، والجانب الثاني ذوقي يتعلق بمواجد الصوفي ومشاعره ويسمى الجانب الأول عندهم"... (بالمقامات) وهو جانب كسبي يشغل المتصوف به بدنه، ونفسه ويروضهما حتى يلينا ويرقا، وأما الجانب الو هبي الذوقي فهو ما أسماه المتصوفة بالأحوال والأّذواق التي لا يمكن لأي متصوف أن يصلها إلا إذا حقق الجانب العملي" [14].

وإذا ما تحقق الجانبان فإن الصوفي يصل إلى مرحلة الكشف الميتافيزيقي وهو "كشف ميتافيزيقي ومن ثمة فهو "...غير قابل للاحتجاج ولا للبرهنة، والأهم أنه غير قابل للتكرار ولا يمكن تلقينه ، فالكشف الحاصل كشف شخصي، ذاتي قد يكون معمى، وغير مفسر حتى بالنسبة لمن وقع له"[15].

ومن هذا المنطلق فالتجربة الصوفية إذن، تجربة ذوقية، فردية تنطلق من الهامش إلى المركز يتمتع بها الصوفي وحده، يصفها لنا " بصرف النظر عما إذا كان يمتلك القدرة على حسن الأداء في وصف هذه التجربة"[16]، ومن هذا المنطلق فإن هذه التجربة هي من بين المرجعيات التي بنيت عليها مكونات خطاب هويته الروحية.

4. المؤلفات الصوفية:

إن التصوف قبل أن يدون في شكل أجناس أدبية مختلفة أهمها الجنس الشعري، كان علما قائما بذاته له أصوله، ومصادره، ومؤلفاته التي تختص بشرح مصطلحاته و سرد قصص وكرامات أوليائه الأمر الذي خلف تراثا ضخما كالرسالة القشيرية، ودواوين شعراء التصوف وغيرهم... ولاشك أن الزاوية كمؤسسة اجتماعية رسخت هذه المؤلفات المشرقية والمغربية في الذاكرة الجزائرية وقد برزت لدى شعراء التصوف الجزائريين وفي هذا يقول عبد الله ركيبي: " ..أما بعد الغزو فقد كادت تطمس هذه المعالم وتندثر حتى بقايا هذه القشور، لولا بعض النماذج التي تركها لنا الأدب في هذه الفترة..."[17]

ثالثا:المكونات المعرفية والجمالية للهوية الروحية في الشعر الصوفي الجزائري الحديث :

1.الحب الصوفي:

الحب بالنسبة للمتصوف سبب وجود التصوف، وأساسه فالكون "خلق بالحب ويدرك بالحب والله جل جلاله لا تدركه الأبصارُ، ولا تحيط به العقول، ولكن الصوفي يوقد مشاعل الحب في قلبه ووجدانه وروحه فيمتطي بذلك المعراج الأكبر الذي يصله بربه"[18] وهي الغاية التي ينشدها كل سالك ولكن تجربة الحب هذه ليست طيعة، إنها لاتتأتى لمريدها إلا بالمجاهدات والمقامات.

وعلى هذا الأساس شاعت في قصائدهم معاني ودلالات الحب، والعشق، والشوق والقرب والبعد ،وقد وجودوا في التعبير عنها ضرورة لا فكاك منها، إذ الصمت المطبق يؤدي إلى الموت المحتم كما يقرر الشبلي قائلا: " المحب إن سكت هلك والعارف إن لم يسكت هلك"[19]. ومن ثم فالبوح بالحب جائز في بعض المواضع، وغير جائز في أخرى خاصة إذا بلغ مبلغا عظيما بصاحبه، إذ يعلن الشبلي أنه سيقود إلى عبارات مستشنعة تألب عليه خاصة المسلمين وعامتهم. ويرتبط الشوق ارتباطا قويا بالحب فكلما كان الحب قويا وخالصا، كان الشوق أقوى فـ"على قدر المحبة يكون الشوق"[20].

وإذا عدنا إلى نصوص الشعر الصوفي الجزائري الحديث للبحث عن هذا المكون الجوهري، فإننا نجد أن قصائد الحب في ديوان الأمير حاضرة بقوة، فالقصيدة يطغى عليها غرض واحد وكأن الشاعر يستبد به " ...الوجد وتسيطر عليه النشوة ،ويتيه في السكر والاندماج ،ينسى نفسه فيعبر عن سجيته بلا رقابة من الوعي ،فهو أشبه بمن " يمشي وهو نائم " قد يصطدم بحائط أو يسقط في هاوية سحيقة وقد تصادفه خميلة ندية أو يعثر على كنز وهو لا يأبه بكل هذا لأنه يسير تحت تأثير اللاوعي"[21].

يقول الأمير:

لقد ضاق صدري بالذي أنا واجدا / وتعبيري لا يفي فيبدو ولا يبدو

ألا فاعذروا من ذاق أن ضاق صدره / كما أن من ذاق عاذركم يغدو

وكم من شهيد للغرام مشاهد لبعض / الذي شاهدت مات فأقبرا[22]

ومما يلاحظ على هذه الأبيات أنها تبدو من شعر الغزل العذري وما يتضمنه من حديث عن الذبول والسهر والغرام، وهذا ما تحيل عليه ألفاظ :ضاق،شهيد الغرام ....وغير ذلك أما أبوعبد الله البوعبدلي فإنه لا يستطيع إلا أن يصف عظمة هذا الحب بصيغة الجمع التي قد لا تفي هذا الشعور حقه:

عرّج على الحي وقف وقوف عانٍ/ و اقرا السّلام من دنفْ مضنى وعان

وقل يا جيران الصفا أو ياجيـران/ هل لازلتم على الوفـــــا والودّ آن

وهل دريتم ما الهوى به دهـــــــاني/ وأي سهم للنّوى به رمـــــــاني[23]

2.الخمرة الصوفية :

تعد الخمرة الصوفية مصدرا للذة روحية لا تمل وهي من نتائج الترقي في المقامات وبلوغ القمة العليا من الدرجات، فهي ترمز إلى قوة المحبة الإلهية وينجم عنها السكر، ليس من جراء شراب معين، وإنما من "وقدة الحب، وحرقة الجوى ولذة الوصال والقرب من الله العلي القهار"[24]. وتؤدي به إلى التعبير بكلام غير مفهوم، قد يكون مستشنعا في ظاهره. ولكنها تؤدي في نتيجتها النهائية إلى اكتساب العلم اللدني ويشير المتصوفة عادة إليها بعدة مصطلحات منها السكر وهو "غيبته بوارد قوي وهو يعطي الطرب والالتذاذ"[25] ويقابله الصحو وهو "رجوع

العارف إلى الاحساس بعد غيبته وزوال احساسه" [26]وكذلك: الكرْم، الدن، الساقي، والنديم... وغيرها مما يدل عليه ظاهر لفظه وقد ورد ذكرها في الشعر الصوفي الجزائري، يقول الأمير عبد القادر:

و إني شربت الكأس والكأس بعده / وكأسا وكأسا شياما أنا حاضرا

وما زال يسقيني وما زلت قائلا / له زدني ما ينفك قلبي مسعرا

وفي الحال حال السكروالمحو/والفنا وصلت إلى أين حقا ولا ورا [27]

3.ذكر الرسول : صلّى الله عليه وآله وسلّم":

يعد الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم وشخصيته معلما بارزا في التصوف بعامة والشعر الصوفي بخاصة من خلال الشوق لرؤيته وإظهار محبته، والسير على خطى سيرته العطرة " ويكاد يكون موضع اتفاق بين الباحثين والدارسين للتراث الصوفي، أن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم هي مركز الحياة الصوفية وأن حبه مرتبط بحبهم لله، ولا عجب فالقوم –على اختلاف اتجاهاتهم – يدركون قيمة الجانب الروحي في حياة الرسول، ويعملون على وراثته، ملتمسين لحياتهم من حياته الشريفة، وطالبين لأنفسهم نورا من نور النبوة، هذا كله مطلب لجميعهم وإن اختلفت تعبيراتهم وتصوراتهم كذلك لطبيعة هذه الصلة "[28]

ونجد أن الأوراد التي يلتزم المريدون بقراءتها تحضر فيها شخصيته عليه الصلاة والسلام ولعل كثيرا من طرائق سلوكهم أخذت من حياته الشريفة " فمن تحنثه في غار حراء أخذوا دعوتهم إلى الخلوة للتأمل، ومن معراجه أخذوا حديثهم عن الكشف، ومن الأحاديث التي تتحدث في الزهد عن الدنيا أخذوا دعوتهم إلى الزهد والتقلل، ومن فعله في العبادة والإكثار منها حتى مع مغفرة الله له أخذوا الرياضات والعبادات " [29]. ولكن قد لا نجد في الشعر الصوفي ما لا يتضمن الحديث عن الرسول (صلى الله عليه وسلم)ببساطة ،إنما يمتد الأمر إلى أبعد من ذلك من خلال الحديث عن الولاية، والنور المحمدي، ولكننا لا نكاد نعثر على هذا كثيرا في الشعر الصوفي الجزائري بقدر ما نعثر على وصفه الخلُقي والخِلقي عليم أفضل الصلاة والسلام . يقول أبو عبد الله البوعبدلي:

صلى عليه الله مادام اسمه/يتلى مع اسم الله في آي السور[30]

أما في قصيدة " ياسائلا عن جمال كان لي وطنا يبدأها الشاعر محمد سليمان بمقدمة فيها حديث عن جمال الرسول في أسلوب أشبه ما يكون بالغزل الصوفي(..):

يا سائلا عن جمال كان لي وطنا/ ولم أزل أجتليه و هوما بطنا

حركت مني ولوعا كان مستترا /ولم أزل أختفيه و هويعلننا

لكنها صولة الأقدارقد حكمت/ وكلنا تحت قهرالحسن قد سكنا" [31]

أما في الشعر الصوفي للأمير عبد القادر فلا نكاد نعثر فيه كثيرا على الحديث عن الرسول إلا في قصيدته إلى شيخه محمد الفاسي:

كساه رسول الله ثوب خلافة / له الحكم والتصريف والنهي والأمر[32]

4.الحديث عن الشيخ:

إن الحديث عن الشيخ وفضائله ضرورة في النهج الصوفي ومن المكونات المهمة في الشعر الصوفي لأن الشيخ كما يرى السهروردي " يحبب الله إلى عباده حقيقة ويحبب عباد الله إلى الله ...فأما وجه كون الشيخ يحبب

الله إلى عباده فلأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ومن صح اقتداؤه وإتباعه أحبه الله تعالى " .[33] وعلى هذا الأساس فإن الشيخ لا بد أن يكون عالما بالشريعة، خبيرا بتزكية النفوس. وقد ورد الحديث عنه كثيرا في الشعر الصوفي الجزائري لدرجة تكاد تجعله في مصاف الأنبياء، من ذلك قصيدة الأمير عبد القادر في شيخه محمد الفاسي يقول فيها:

أغث يا مغيث المستغيثين !/ والها ألم به من بعد أحبابه الضر

أسائل كل الخلق هل من مخبر؟! / يحدثني عنكم فينعشني الخبر

محمد الفاسي له من محمد / صفي الإله الحال والشيم الغر

شمائله تغنيك إن رمت شاهدا / هي الروض لكن شق أكمامه القطر [34]

كما نجد نصوصا كثيرة للديسي (1921/1854)، ولمصطفى بن عزوز(1866/1805م)...وغيرهم ولكنها تكاد تشترك جميعا في تعداد خصال الشيخ وكراماته، وأن مشيخته أمر قضت به الحكمة الإلهية.

5.التخلي والتحلي:

التخلي والتحلي من المصطلحات التي تحيل على مراحل صوفية، تبدأبالتخلي عما سوى الله عز وجل، وتطهير القلب مما علق به من أدران وسموم الذنوب، وآثار المعاصي،والانشغال بالمدنس،إضافة إلى تصفية القلب بدوام المراقبة لله عز وجل والانشغال بالذكر، والتدبر والتفكر، وكثرة ذكر الموت وهذه مرحلة عظيمة يحبها الله ورسوله مصداقا لقول الله تبارك وتعالى**(إنّ الله يُحِبُ التَوابِينَ ويُحِبُ المتَطِهرينَ) البقرة/ 222** وبدوام المراقبة والتخلي عما سوى الله عز وجل يرق القلب، ويعرف التخلي في معجم المصطلحات الصوفية بأنه " اختيار الخلوة، والإعراض عن كل ما يشغل عن الحق، وقيل التخلي هو العزلة لأنه لم يقو على نفسه وضعف فاعتزل من نفسه إلى ربه" [35]ويصبح مهيئا للتحلي وهو" التلبس والتشبه بالصادقين، بالأقوال وإظهار الأعمال وفي الحديث ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال"[36]بالأخلاق الطيبة النبيلة والمثل العليا والتأسي بسيد الخلق وحبيب الحق محمد صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله وحركاته وسكناته ودخوله وخروجه ومعاملته للخلق .

إن الحديث عن التخلي والتحلي حاضر في الشعر الصوفي الجزائري الحديث ولكنه لا يظهر بشكل مباشر مقارنة بمواضيع أخرى كالحب والخمر ووصف الشيخ، ونجد هنا الحديث فقط عن الصبر على مجاهدة النفس وهي تسعى لتحقيق الحب الصوفي :

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني / صبر المحبين ما ناحوا ولا باحوا [37]

أما لدى البوعبدلي فيبدو التخلي في لوم النفس:

أيحلو ورايات المشيب خوافق/تلاهيـــــــــــك مثل ما لهوت غلاما

ويحسن والخمسون وتسع حجة / مضت أن يلي منك المجون لجاما؟

فلا والذي تعنو الوجوه له / ولم بحكمته أبدى سنـــــا وظلامـــــــا

ليَجْمُلُ أن يسقى بياض المشيب في / دجى الحزن دمعا بالدماء سجاما[38]

6.الرموز:

لأهل التصوف عالم خاص بهم يقوم على التجربة الذوقية، الذاتية التي يعايشونها والتي تعلي من شأن القيم الروحية، وفي سبيل الحفاظ عليها لجأ هؤلاء إلى الرموز التي لا يفهمها غيرهم خاصة بعد أن رأوا في تجارب غيرهم من المتصوفة ممن باحوا بسرهم الصوفي رد فعل المجتمع والسلطة القائمة فاختاروا مصطلحات ورموزا لا يمكن فهمها دون العودة إلى المعاجم الصوفية التي ظهرت في فترة لاحقة لخطابهم التعبيري. وفي هذا يقول الأمير عبد القادر:

ويح أهل العشق هذا حظهم / هلكى ! مهما كتموا أوصرحوا[39]

ولا ينكر المرء ما تخفيه هذه الرموز من جمال فني ومن قدرة على إغواء المتلقي لفك دلالتها إن أحسن الشاعر استخدامها، والمتأمل في الشعر الصوفي الجزائري الحديث يجدها بكثرة وقد استعملها الشاعر في مكانها المناسب فحينما يتحدث عن شدة وطأة الحب عليه يستخدم مصطلح السكر، وإن تحدث عن الشيخ يوظف مصطلح الغوث ..إلى غير ذلك.

الخاتمة:

ختاما نجد أن البحث في مكونات ومرجعيات الهوية الروحية في الشعر الصوفي الجزائري الحديث قادنا إلى جملة من النتائج يمكن إجمالها فيما يلي:

- استمدت الهوية الروحية في الشعر الصوفي الجزائري الحديث مكوناتها الأسلوبية والتعبيرية من النص القرآني، ومن الحديث النبوي الشريف، ولم تَغفل كذلك عن النهل من التجربة الصوفية الجزائرية خصوصا والعربية عموما – في شقيها المعرفي والسلوكي- كما نهلت من مختلف الخطابات التي خلّفها المتصوفة عبر التاريخ سواء أكانت أدبية أو غير ذلك(معاجم، شروحات..).

- إن محاولة فك مكونات الخطاب الشعري الصوفي الجزائري الحديث عبر تجربة بعض الشعراء الجزائريين أفضت إلى تشكله من مكونات أساسية، مألوفة في الخطاب الشعري الصوفي العربي بشكل عام كالبوح بمشاعر الحب اتجاه المقدس، وغير ذلك مما يعايشه الشاعر الصوفي من تجربة روحية، ذوقية.

- يعد الحديث عن الشيخ وفضله في الإبانة عن مزايا خوض التجربة الصوفية ومزالقها مكونا جديدا في الشعر الصوفي الجزائري الحديث، مقارنة بالتجربة الصوفية التراثية، وهو يحيل إلى الهوية الروحية الجمعية وليس الفردية فقط الخاصة بالشاعر الصوفي نفسه.

- إن الاستئناس بالرموز الصوفية يعد ضربا من الإبداع الأسلوبي الذي لجأ إليه الشعر الجزائري الصوفي الحديث، وقد أحسن الشعراء في كثير من المواضع استخدامه، وقد كان خادما لقضية الهوية الروحية فنيا إذ لفها بالغموض الذي يغوي المتلقي فلا يصل إليها بشكل سهل، غير ممتنع.

- بغض النظر عن الجانب الجمالي للشعر الصوفي الجزائري الحديث الذي يتراوح في تعبيره عن الهوية الروحية بين العمق والبساطة، وبين الإبداع والإتباع يمكن القول: إنه استطاع اختراق الحدود المحلية ليُعَرِفَ العالم بالهوية الروحية الجزائرية خاصة ما تعلق بشعر الأمير عبد القادر الجزائري.

قائمة المصادر والمراجع:

1. الأمير عبد القادر الجزائري ،ديوانه، جمع وتح :العربي دحو،ط 3، دار ثالة ،الجزائر،2007
2.ابن خلدون، المقدمة www.mohamedrabeea.com/books/book1_3227.pdf61
3. حسن الشافعي و أبو اليزيد العجمي: في التصوف الإسلامي، دار السلام للطباعة والنشر، مصر، ط1، 2007.
4. الحسين بن منصور الحلاج: الديوان ومعه أخبار الحلاج وكتاب الطواسين، وضع حواشيه وعلق عليه: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2002.
5. سفيان زدادقة: الحقيقة والسراب (قراءة في البعد الصوفي عند أدو نيس مرجعا وممارسة)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008.
6. سعيدة بن بوزة :الهوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغرب العربي، دكتوراه ،مخطوط ،إشراف الطيب بودربالة ،جامعة باتنة 2007، 2008،
7. سعيد إسماعيل علي : التربية الإسلامية وتحديات القرن الحادي والعشرين ، المؤتمر التربوي الأول لكلية التربية والعلوم الإسلامية بجامعة السلطان قابوس بعنوان " اتجاهات التربية وتحديات المستقبل ، في الفترة 7 – 10 ديسمبر 1997 .
8.الشريف الجرجاني كتاب التعريفات. دار إحياء التراث العربي. بيروت. لبنان. ط1. 2003.
9. عبد الحق منصف: أبعاد التجربة الصوفية (الحب. الإنصات. الحكاية)،إفريقيا الشرق،المغرب 2007،
10. عبد الحميد هيمة : الخطاب الصوفي وآليات التأويل (قراءة في الشعر المغاربي المعاصر)، موفم للنشر والتوزيع،الجزائر 2008
11.أبو عبد الله البوعبدلي ،ديوانه، تح: عبد الله زيتوني، دار أم الكتاب، بوقيراط،مستغانم، الجزائر،ط1، 2015.
12.عبد الله ركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، الشعر الديني الصوفي،ج1،دار الكتاب العربي 2009
13.عبد المنعم الحفني: معجم المصطلحات الصوفية، دار المسيرة ،بيروت،ط2، 1987.
14. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور دار صادر بيروت لبنان 2003 ج 15.
15. أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري: الرسالة القشيرية،مؤسسة الكتب الثقافية،،ط 1، بيروت، لبنان.
16. ناهضة ستار: بنية السرد في القصص الصوفي (المكونات والوظائف، والتقنيات)، اتحاد الكتاب العرب،دمشق، 2003.
17. أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني الشافعي : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، تح: عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ،ط2007،مج3،ج10.
18. هاني محمد يونس موسى دور التربية في الحفاظ على الهوية الثقافية للمجتمع العربي/.../faculty.ksu.edu.sa/74631 .
19. هويدا عدلي: العولمة والهوية الثقافية في إفريقيا، مجلة دراسات ،ليبيا ،ع 10،الخريف،2002.
20. وائل مصباح محمد العريني :القيم الروحية في شعر عمر بهاء الدين الأميري ،إشراف محمد شحادة تيم ،ماجستير،مخطوط،2007.
21 .https://dictionnaire.lerobert.com/definition/identite

هوامش وإحالات المقال

[1]مقدمة ابن خلدون ص www.mohamedrabeea.com/books/book1_3227.pdf61

[2] سعيدة بن بوزة :الهوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغرب العربي، دكتوراه ،مخطوط ،إشراف الطيب بودربالة ،جامعة باتنة 2007، 2008،ص 15.

[3] وائل مصباح محمد العريني :القيم الروحية في شعر عمر بهاء الدين الأميري ،إشراف محمد شحادة تيم ،ماجستير،مخطوط،2007،ص 40.

[4]أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور دار صادر بيروت لبنان 2003 ج 15 مادة هوا،ص 117.

[5] https://dictionnaire.lerobert.com/definition/identite)

[6] سعيدة بن بوزة :الهوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغرب العربي ، ص 16.

[7]مجموعة من الباحثين: المنجد في اللغة والأعلام ،دار المشرق،بيروت ،ط 38 ،2000،ص 875.

[8] سعيد إسماعيل علي : التربية الإسلامية وتحديات القرن الحادي والعشرين ، المؤتمر التربوي الأول لكلية التربية والعلوم الإسلامية بجامعة السلطان قابوس بعنوان " اتجاهات التربية وتحديات المستقبل ، في الفترة 7 – 10 ديسمبر 1997 ، ص 95

[9] هاني محمد يونس موسى دور التربية في الحفاظ على الهوية الثقافية للمجتمع العربي/.../faculty.ksu.edu.sa/74631 ص 12.

[10] - المرجع نفسه،ص 15.

[11] عبد الله ركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، الشعر الديني الصوفي،ج1،دار الكتاب العربي 2009،ص 245.

[12] ركزنا على المرجعيات الشائعة والمشتركة بين الشعراء، أما تلك التي يتفردون بها فالمقام لا يتسع لذكرها على غرار تيار التصوف الفلسفي الذي نجده في نصوص قليلة لدى الأمير عبد القادر الجزائري، ينظر:نص عود وورود الذي يتحدث فيه عن الحلول : الأمير عبد القادر الجزائري ،ديوانه، جمع وتح :العربي دحو ،ط 3، دار ثالة ،الجزائر،2007،ص 118

[13] يقول الجنيد البغدادي " علمنا هذا – التصوف- مقيد بالكتاب والسنة، ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لايقتدى به" ينظر: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني الشافعي : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، تح: عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ،ط2007،مج3، ج10، ص 274.

[14] عبد الحميد هيمة : الخطاب الصوفي وآليات التأويل (قراءة في الشعر المغاربي المعاصر)،موفم للنشر والتوزيع،الجزائر2008،ص 69

[15] سفيان زدادقة: الحقيقة والسراب (قراءة في البعد الصوفي عند أدو نيس مرجعا وممارسة)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص 97.

[16] ناهضة ستار: بنية السرد في القصص الصوفي (المكونات والوظائف، والتقنيات)، اتحاد الكتاب العرب،دمشق، 2003،ص 32.

[17] عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشعر الديني الصوفي،ج1،ص14

[18] علي الخطيب:اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي،دار المعارف،القاهرة،د ط،دت، ص11،12.

[19] أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري: الرسالة القشيرية، مؤسسة الكتب الثقافية،ط 1، بيروت، لبنان، ص315

[20] المرجع نفسه، ص320

[21] عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشعر الديني الصوفي،ج1، ص 257.

[22] الأمير عبد القادر الجزائري ،ديوانه، ص 122،121

[23] أبو عبد الله البوعبدلي ،ديوانه، تح: عبد الله زيتوني، دار أم الكتاب، بوقيراط،مستغانم، الجزائر،ط1، 2015،ص 38

[24] علي الخطيب: اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي،ص 148

[25] عبد المنعم الحفني: معجم المصطلحات الصوفية، دار المسيرة ،بيروت،ط،2،1987ص149

[26] المرجع نفسه،الصفحة نفسها .

[27] الأمير عبد القادر ،ديوانه،ص 122.

[28] حسن الشافعي وأبو اليزيد العجمي: في التصوف الإسلامي،138.

[29] المرجع نفسه ،ص144.

[30] أبو عبد الله البوعبدلي،ديوانه،ص142.

[31] عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشعر الديني الصوفي،ج1، ص56،57.

[32] الأمير عبد القادر،ديوانه ،ص109.

[33] حسن الشافعي وأبو اليزيد العجمي: في التصوف الإسلامي،135

[34] الأمير عبد القادر،ديوانه،ص107،108.

[35] عبد المنعم الحفني :معجم مصطلحات الصوفية ،ص43

[36] المرجع نفسه ،الصفحة نفسها .

[37] الأمير عبد القادر الجزائري،ديوانه ،ص115

[38] أبو عبد الله البوعبدلي،ديوانه،ص95.

[39] الأمير عبد القادر الجزائري، ديوانه، ص 117.